فتح اريحا: الظهور الإلهي وسقوط اسوار اريحا
(يش ٥:١٣- ٦:٢٧)

الخوري يوسف فخري
خادم رعيّة بشرّي
ومدرّس الكتاب المقدّس في إكليريكيّة كرم سدّه

ليس سفر يشوع محضراً يسرد فيه كاتبه وقائع تاريخية متسلسلة ومثبتة علمياً. فبين الأحداث المذكورة فيه وبين تدوينها فاصل زمني طويل يبلغ عدة قرون، كما ان احتلال ارض كنعان لم يتمّ على يد الاسباط مجتمعة، بل على يد داود الملك في القرن العاشر ق. م.، كما يثبت ذلك النقد التاريخي. امّا في ما قبل، فإن الكنعانيين لم يبادوا عن بكرة ابيهم، بل بقوا في السهول وتعايشوا مع بني اسرائيل (يش ١٥:٦٣؛ ١٦:١٠؛ ١٧:١٢ و١٨).

اذاً، كيف يجب قراءة سفر يشوع؟ ان قرأنا السفر بامعان، اتّضح لنا اننا امام تقاليد تخصّ سبطَي بنيامين وافرائيم، اي سبطَي الناحية الوسطى لفلسطين، والعائشين في ظلّ معبد الجلجال. تمّ جمع هذه التقاليد على يد احد تلامذة المدرسة التي اعطت سفر تثنية الاشتراع (المدرسة الاشتراعية تشدد على وحدانية الله ووحدة الارض والشعب) الذي عليه يرتكز الكاتب ليتأمل في تاريخ اسرائيل على ضوء الاختبارات الجديدة (اي في القرنين السابع والسادس ق. م.). فعندما يتكلّم عن فتح ارض كنعان، يظهرها وكأنها عمليّة قام بها «كل بني اسرائيل» (يش ١٠:٢٨-٣٩)؛ والتلميح المتكرّر الى اسباط عبر الاردن يرمي الى التركيز على وحدة كلّ الشعب في وقت كان الجدل قائماً حولها (يش ١:١٢-١٦؛ ١٣:٨-٣٢؛ ٢٢:١-٦). وخطر افساد امانة اسرائيل لالهه، الذي تسببه جيرة الامم الوثنية ومخالطتها، دفع الكاتب الى الكلام على عملية ابادة لهذه الشعوب واستئصالها من ارض كنعان، ثم الى تحريمها (كلمة «حرم» تعني «الفصل» او «وضع شيء ما جانباً»).

تدبير كهذا يصدمنا عندما نطالع رواية سقوط اريحا! ولكنّه، في الواقع، تدبير نظري اكثر منه واقعي. ولقد ابتُدعت فكرة «التحريم» في وقت ظهر فيه خطر الوثنية على الايمان التوحيدي لبني اسرائيل.

نتيجة هذا كلّه، نجد انفسنا امام سفر مليء بالامور المستغربة والعجائب المضخّمة والمحيّرة وغير القابلة للتصديق، كعبور نهر الاردن على اليابسة، وسقوط اسوار اريحا بعد الطواف حولها، وتوقف الشمس بأمر يشوع، وغيرها. وهكذا يغور التاريخ ويضيع في احاديث وروايات اقرب الى الخيال منها الى الواقع. من هذه الروايات، فتح اريحا.

مدينة اريحا

تقع مدينة اريحا (في العبرية «يريحو») في غور الاردن، على بعد ٢٣ كلم من الجهة الشمالية-الشرقية لاورشليم، في ارض سبط بنيامين. اسمها مشتق من اله القمر «يَرَحْ»، وقد ذكرتها مراراً حوليات «ماري» (حوالي ١٨٠٠ سنة ق. م.). كانت المدينة محطّ انظار القبائل والرعاة منذ القدم بسبب خصب تربتها ووفرة ينابيعها اذ تروي ارضها ثلاثة ينابيع: الاول «نبع اليشاع» (٢مل ٢:١٩-٢٢) ويسمّى اليوم «عين السلطان»؛ الثاني في الشمال- الغربي للمدينة ويسمى «عين الديك»؛ والثالث في الجنوب في منطقة «وادي قلط». ان موقع اريحا الاستراتيجي وغناها الطبيعي جعلا منها مدينة مزدهرة اقتصادياً وعمرانياً على كرّ حقبات التاريخ، فكسبت شهرة عالمية ولقّبت

بـ «المدينة العظمى»، على حدّ تعبير المؤرخ اليهودي يوسيفوس. لكن عظمة اريحا، بالنسبة الى الكاتب الاشتراعي محرّر سفر يشوع، ستسقط مع اسوارها امام تابوت عهد الرب، اذ من يقف امام وجهه القدّوس؟ ومن يثبت امام تجلّي عظمته؟ في هذه البيئة الادبية والتاريخية المرتوية من الايمان بالاله الاحد سيد التاريخ، دوّنت رواية سقوط اريحا.

الاستيلاء على اريحا

لقد مهّد الكاتب الاشتراعي للحدث بظهور الهي، «تيوفانيا» (يش ٥:١٣-١٥)، وهو ظهور يتضمّن وحياً واوامر اعطيت ليشوع قبل دخوله مدينة اريحا كما سنرى.

أ- الظهور الالهي

مما لا شك فيه ان ظهور قائد جيش الرب بجوار أريحا، هو بمثابة رسالة من السماء تتناول الفتح، اذ كان بنو اسرائيل يتصوّرونه عملاً الهياً قام به الرب بنفسه. هذا الترائي يذكرّنا بظهور الرب ليعقوب في منطقة فنوئيل (تك ٣٢: ٢٥-٣٣)، او لموسى في العليقة الملتهبة على جبل حوريب (خر ٣:٢-٥). يتمّ الظهور في مكان محدد، فيعي الرائي انه في مكان مقدس وانه امام حضور الهي، لهذا «سقط يشوع على وجهه على الارض وسجد» (٥:١٤) لانه علم انه في حضرة الله. والتقليد الكتابي يخبرنا ان مع كل ظهور الهي في العهد القديم، هناك رسالة خلاصية تندرج ضمن مخطط الله الخلاصي؛ فبعد مصارعة الله ليعقوب في فنوئيل (تك ٣٢:٢٥-٣٣) اعطى الرب هذا الاخير اسماً جديداً، وهو «اسرائيل» (اي «ليكن الله قوياً»)، دلالة على اختياره له لمهمة سامية، ثمّ «باركه هناك» (تك ٣٢: ٣٠)، فاصبح يعقوب «بركة الرب» ومصدر بركة للشعب وللامم. وكذلك على جبل حوريب (خر ٣:٢-٥)، بعد الترائي الالهي لموسى في العليقة الملتهبة، حمّل الرب «نبيّه» (تث ١٨:١٥) رسالة خلاصية: «فالآن، اذهب! ارسلك الى فرعون، اخرج شعبي بني اسرائيل من مصر» (خر ٣:١٠).

والترائي الالهي بجوار اريحا، بشخص قائد جيش الرب: «فاذا رجل واقف امامه، سيفه في يده مسلول... فقال له يشوع: أمِنَّا انت أم من اعدائنا؟ فقال: كلاّ، بل انا رئيس جند الرب» (يش ٥:١٣-١٤)، يحمل ايضاً رسالة خلاصية: مناصرة شعب الموعد في شخص يشوع. فالقائد الحقيقي لشعب الله في حروبه المقدسة هو الرب بالذات، وبالتالي فهو يحقق بنفسه تدبيره الخلاصي بواسطة قائده وشعبه.

عندما نسمع مثل هذا الكلام نتعجب ونتساءل: هل اصبح الرب رجل حرب؟! كيف يساعد شعباً على شعب آخر؟! كما قلنا، لمّا دوّن المؤرخ الاشتراعي هذا الحدث في القرن السابع، كانت «الفوضى البابلية» تجتاح مملكة يهوذا في كل الميادين: الشرك، والفساد، والبغاء الفكري والجسدي، والانقسامات بين شعب الله

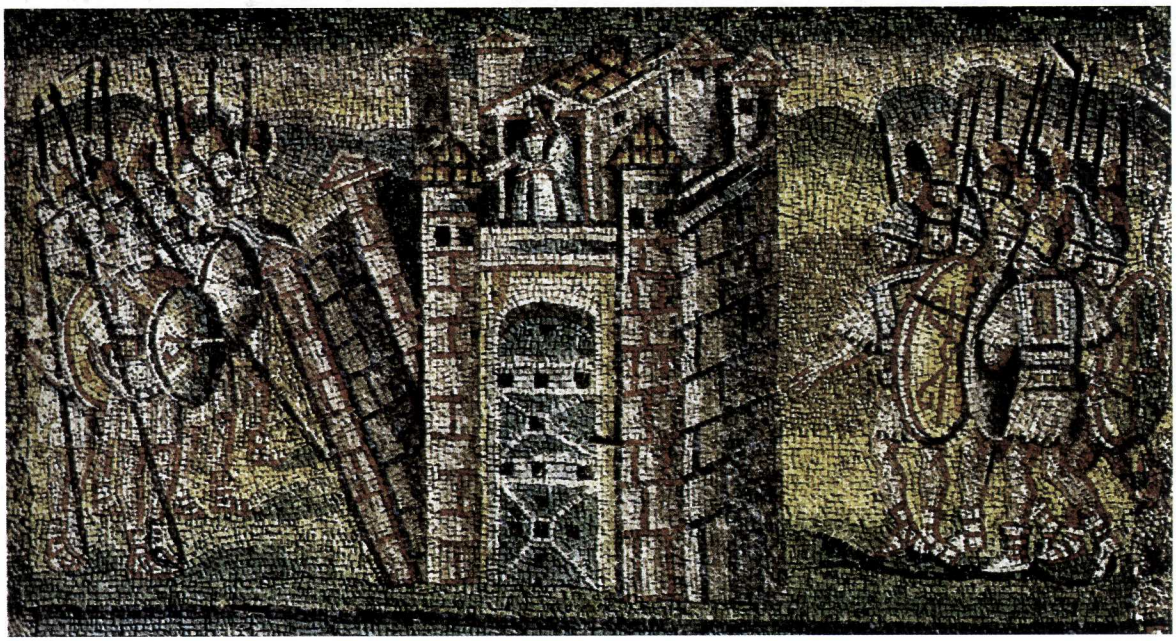

الواحد، والعداوات والخصومات... امام هذا الشرّ الجامح، وَعَى الكاتب الاشتراعي الخطر المحدق بالركائز الثلاث لكيان اسرائيل: وحدانية الله، وحدة الارض ووحدة الشعب. عندها، عاد المؤرخ الى الماضي يستقي من معينه دروساً للحاضر، فحكم على الاحداث الماضية على ضوء النتائج الحاضرة. قديماً، ساعد الرب بني اسرائيل على ان يكون لهم مكان تحت الشمس، على غرار سائر الشعوب، واعطاهم الحرية الضرورية لحياتهم الروحية والزمنية كشعب لله. ولكنّ الحالة تبدّلت الآن، لهذا يعلن المؤرخ الاشتراعي انتصارات الرب الممكنة اليوم كما في الامس، شرط ان يخدم الشعب ربّه بامانة، وهذا ما نسمّيه في اللغة البيبلية «التأوين»، اي قراءة الماضي على ضوء الحاضر.

ب- سقوط اسوار اريحا

يقدّم لنا يش ٦:١-٢٧، فكرة عن الحرب المقدّسة في الاستيلاء على اريحا. لكنّ الفصل يرزح تحت ترداد الاخبار والاضافات التي تثقله ولا توضحه. غير ان كل الصعوبات تسقط في الملحمة الدينية مع سقوط اسوار المدينة. في الاساس، هذا الفصل هو نشيد ليتورجي يرتبط بالفصول السابقة (يش ٣-٥): عبور الاردن (٣:١-٤:٨)، ختن بني اسرائيل في الجلجال (٤:١٩ - ٥:٩)، واقامة الفصح (٥:١٠-١٢). يذكر يش ٦ تابوت العهد ست مرات، ويحدّثنا عن الكهنة واللاويين الذين يحملون التابوت وينفخون في الابواق، فيشعر القارئ انه امام تطواف ديني وجوّ ليتورجي بعيدَين كلّ البعد عن قعقعة السلاح وصهيل الخيول. وتطرح الاسئلة: هل احتلّ بنو اسرائيل اريحا حقاً؟ هل كانت اريحا المدينة العظيمة كما يصورها النص ام ان الكاتب ضخّم الامور ليبين عظمة عمل الله؟ في الواقع، هذه الرواية ترتقي الى التقاليد البنيامينية التي نشأت في ظل معبد الجلجال والتي ترى في سقوط اسوار اريحا اول عمل الهي في ارض كنعان. لكنّ اكثرية العلماء يُجمعون على ان الرواية ليست رواية تاريخية حتى في صيغتها الاوليّة، لان علم الآثار لا يأتي على ذكر خراب اصاب المدينة في اواخر القرن الثالث عشر ق. م. فالكاتب الاشتراعي الذي وصلته رواية سقوط اريحا، رأى فيها تدخلاً الهياً يحقق الخلاص للشعب، فوضع الحدث في اطار ليتورجي، مبيّناً ان الله يتمم مواعيده بدون اي فضل للبشر. يكفي للشعب ان يخرج في طواف ديني، وان يحمل الكهنة تابوت العهد علامة حضور الرب الذي يعمل هو وحده، وان ينفخ في البوق، لتسقط الاسوار الشامخة. الله يعمل ويخلص، والشعب يكتفي بان ينفذ الأعمال الليتورجية التي يأمر بها الله بواسطة من اوكلهم بشعبه، وهكذا يتمّ مخطط الله في ارض اسرائيل. تلك المدينة المحصّنة التي لا تؤخذ، قد سقطت امام الرب ركاماً، اذ من يثبت امام وجهه؟ لقد احاط الشعب باريحا، لا في حرب بل في طواف ليتورجي، وداروا بتابوت العهد سبع مرات (اي عمل كامل) واطلقوا الهتافات فسقطت الاسوار. العلاقة واضحة بين السبب والنتيجة، بين العمل الليتورجي وسقوط الاسوار. والحدث- المعجزة الذي يحتفل به الشعب، يلخص اختبار بني اسرائيل الديني: من اجلهم عمل الله اعمالاً عظيمة، فحقق مواعيده القديمة للآباء وهكذا تحولت رواية سقوط اريحا من رواية مثالية للحروب الدينية الى رواية ليتورجية تشدد على دور الكهنة وعلى تدخل الله من اجل شعبه.

سقوط اريحا اليوم

لنا في حادثة اريحا اليوم اكثر من امثولة روحية. فسقوط «المدينة العظمى» يعلّمنا انّ للصلاة فاعلية لا توصف. ان الطواف حول اريحا بتابوت العهد والنفخ بالابواق والهتافات كان مسيرة صلاة وتضرع، لذا استجابها الرب وكانت النتيجة بيّنة. كما يجب ان لا نكلّ من تأدية واجبنا الديني على اكمل وجه. لقد دار بنو اسرائيل سبعة ايام حول المدينة ثلاث عشرة مرة ولم يكلّوا. والعدد سبعة يدلّ على الكمال، فيجب علينا ان نقوم بواجباتنا الدينية والزمنية قياماً كاملاً.

واريحا ترمز الى حضور الشرّ، وسقوط اسوارها امام تابوت العهد رمز الى سقوط اسوار الجهل امام الكرازة الانجيلية. ان الله لا يضيّع اجر المحسنين الى رسله وتلاميذه، فانه انقذ راحاب ومن لها لمجرد انها قبلت الجاسوسين وخبّأتهما. ألَمْ يَقُل يسوع: «من يقبل نبياً باسم نبي فأجر نبي يأخذ. ومن سقى احد هؤلاء الصغار كأس ماء بارد باسم تلميذ، فالحق اقول لكم: انه لايضيع أجره»؟

اخيراً، ان الله ربّ السبت، فله ان يجيز الاعمال في السبت كما اجاز لبني اسرائيل، ذلك لان الاعمال الصالحة اولى بالجواز في ذلك اليوم ولا سيما العبادة، فلقد عمل الكهنة والشعب سبعة ايام في حصار اريحا، فلا بدّ من ان يكون واحد منها السبت، ويسوع شفى المرضى يوم السبت لانه سيّد السبت (متّى ١٢:٨؛ مر ٢:٢٨؛ لو ٦:٥).